مجلة مدارات سياسية
EISSN: 2710 - 8341 ISSN: 2588 - 1825
المجلد (03) / العـدد: (04)، (2019)، ص 09 - 28

# الأفارقة السود المهاجرون بالجزائر بين الوصم وإشكالية الإندماج

## دراسة سوسيو–أنثروبولوجية بمنطقة تامنغست

# The Black African immigrants in Algeria between stigma and problematic integration: a socio-anthropological study in Tamanghasset region

بووشمة الهادي[1] Bououchma Elhadi
ثياقة الصديق[2] Tiaga Seddik
[1]المركز الجامعي أمين العقال الحاج موسى أق أخموك، مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست، (الجزائر)
E.bououchma@cu-tamanrasset.dz
[2]المركز الجامعي أمين العقال الحاج موسى أق أخموك، مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست، (الجزائر)
seddiktiaga@gmail.com
[1]University Center in Tamanrasset, Laboratory of the scientific and cultural heritage of the Tamanrasset, (Algeria), E.bououchma@cu-tamanrasset.dz
[2]University Center in Tamanrasset, Laboratory of the scientific and cultural heritage of the Tamanrasset, (Algeria), seddiktiaga@gmail.com

تاريخ الإستلام: 2019/10/25 تاريخ قبول النشر: 2019/11/21 تاريخ النشر: 2019/12/17

**الملخص:**

يتمحور هذا العمل حول إشكاليتين أساسيتين، أولا سنحاول البحث في الوصم المرتبط بالسود الأفارقة الموجودين بتراب منطقة تامنغست، في مقابل مقاربة وضع هؤلاء من حيث اندماجهم داخل المجتمع المحلي، لتحقيق ذلك فككنا هذا العمل إلى ثلاثة مباحث رئيسة، خصّ الأول منها تحديد المجال الفيزيقي لهذا العمل، مرورا بمبحث ثاني خصصناه للبحث في جدلية الأسود والأبيض وإشكالية الوصم، وهذا انطلاقا من عدة مطالب كان فيها العودة للبحث في مسألة الرق والتمثلات الاجتماعية للأسود في اطار الغيرية، مرورا بالبحث في علاقة البنية الاجتماعية والتراتب الطبقي بالوصم، وانتهاء إلى بحث علاقة الوصم بالمخيال والذاكرة الجماعية والتاريخ المحلي والجغرافيا ودورها في تغذية ذلك.

في المبحث الثالث والأخير حاولنا أن نقف ميدانيا عند إشكالية الاندماج الاجتماعي للأفارقة الموصومين بالسوادين وسط المجتمع المحلي، وهذا انطلاقا من أبعاد خصت الشغل، التعليم، العلاقات والتفاعلات الاجتماعية، الزواج وغيره، لننتهي في الأخير إلى التأكيد على أن الوصم مستمر وتغذيه العديد من الرواسب الذهنية والمخيالية، وأنه نتيجة لذلك يبقى الاندماج جزئي، وتحقيقه الكلي صعب في ظل كل هذه البقايا، التي لاتزال تختزن في اللاوعي والذاكرة الجماعية.

**الكلمات المفتاحية:** الوصم، الاندماج الاجتماعي، الاقصاء الاجتماعي، الأسود والأبيض، الغيرية، تامنغست.

**Abstract**

The emphasis of this work is twofold, first, it will elaborate on stigma related to African blacks who exist in Tamanghasset region, and will approach their situation in terms of integration in local society, this work is divided into three parts, and the first one is assigned to identify the

physical area of this research. The second part aims to investigate the dialectic of White and Blacks, with the addition to stigma problem. In this context, the slavery issue and social representations of Blacks in relation to otherness, the third part covers the relationship between social structure and strata hierarchy and the stigma,

Finally, the work will investigate the relationship between stigma and social imagination, collective memory, local history, geography and their roles in strengthening them. The third part tried to empirically scrutinize the issue of social integration of African blacks those are stigmatized as blacks "Swadeen" in Tamanghasset society, this perspective is based on various dimensions: labour, education, social interactions and relations, marriage, The research revealed that ensure the continuity of stigma so the integration remained partial, then its fully implement is still latent in collective unconscious and memory.

**keywords:** Stigma, Social integration, Social exclusion, black and white, otherness, Tamanghasset.

**تمهيد:**

سيتفكك هذا العمل على شقين أساسين، الأول سنخص به ظاهرة الوصم المرتبط بالأفارقة من مجتمعات جنوب الصحراء خصوصا، وهذا من طرف المجتمع المحلي، الذي يستوطن منطقة تامنغست كنموذج، حيث ينعت ويسمي الأقليات السوداء غير الجزائرية، التي هاجرت أو نزحت من افريقيا إلى أرضه على مدار السنوات والقرون الماضية "بالسوادين" محليا، وهي دلالة تميزية وتمايزية تمارس فعل الاختلاف وحتى الاستبعاد والاقصاء والتمييز في بعض مجالات الحياة الاجتماعية بالمنطقة.

في هذا السياق فإن هذا يتوافق والشكل الثالث للوصم، الذي حدّده كلا من **أرفينغ غوفمان ( Erving Goffman)** **ودونيس جودلي (Denise Jodelet)**، ويخص حسبهم ذلك الوصم الذي يرجع ويتغذى من الاختلافات الاثنية والثقافية والدينية والمجتمعية والعرقية وغيرها، وهو ما سنركز عليه ضمن نوع الوصم وشكله الذي سنقاربه في مباحث هذا العمل.

في الشق الثاني من هذا العمل سنبحث في إشكالية اندماج هذه الفئة الموصومة بـ "السوادين" داخل المجتمع بمنطقة تامنغست، ولأجل تحقيق ذلك سنحاول اختبار عدد من الأبعاد والمؤشرات ميدانيا لكشف مدى تضمين واندماج هذه الفئة داخل المجتمع المحلي أو استبعادها واقصائها تبعا للوصم المرتبط بها.

بخصوص ذلك حاولنا العودة إلى سوسيولوجيا الاندماج والاستبعاد مع بعض الأعمال الأنجلوساكسونية **لأنتوني غيدنز (A .Giddens) وجون هيلز (Hills) وجوليان لوغران (Le Grand) ودافيد بياشو (Piachaud)، وبريان باري (B. Barry) وتانيا بورتشارد (T. Burchardt)** وغيرهم.

بالنسبة للإشكالية البحثية التي سنشتغل عليها في هذا البحث، هو أننا سنحاول الإجابة والكشف عن واقع وممارسات الوصم بالمجتمع المحلي بداية، مع البحث في مفارقاته وأسبابه والعوامل التي وطدت له في المعيش اليومي بمجتمعات المنطقة، وبعدها ستكون المقاربة سوسيولوجيا وأنثروبولوجيا لعلاقة الوصم الاجتماعي بالاندماج والاستبعاد الاجتماعي.

بمعنى آخر فإن هذا البحث سنحاول من خلاله الكشف السوسيو-أنثروبولوجي لظاهرة الوصم وممارساته بالمجتمع المحلي، مع البحث في سياق مرتبط بالحيثيات والعوامل والأسباب التي ترتبط به وستكون العودة في ذلك بشكل كرونولوجي- تاريخي للتطورات والتحولات التي توطد معها الوصم بين الفئات الاجتماعية ومعيشها بالمنطقة.

في هذا السياق يرتبط الوصم في المنطقة بما ينعت ويسمى به الأفارقة المهاجرين بين مجتمع الطوارق والقبائل العربية بتامنغست وهي كلمة وتسمية "السوادين" نسبة إلى سواد بشرتهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يشكل ذلك في قراءته السوسيو- أنثروبولوجية إلى نوع من التمايز والاختلاف الذي يمارسه الانسان المحلي في مقابل الأفارقة الموصومين بالسوادين.

التعمق في البحث في ذلك يعيدنا إلى التراتبات الطبقية والسلالية بالمنطقة والانقسامية بين مختلف القبائل وحتى داخلها في مقابل المهاجرين والوافدين الأفارقة، الذين وتبعا لأنظمة تراتبية نمطية قديمة تتغذى من التراتبات السالفة الذكر، يصنفون في أسفل الهرم تبعا للون بشرتهم وموقعهم، في مقابل النبلاء والأشراف (ذي اللون الأبيض في الغالب) الذين يتسيّدون رأس الهرم الطبقي بالمنطقة.

البحث في ذلك يقودنا أكثر للبحث في النظام الاجتماعي التقليدي والقبلي بالخصوص بالمنطقة، إضافة ربطه بالجغرافية البشرية وتشكل البنية الديمغرافية في المنطقة من ناحية وعلاقة هذه الجهة بالساحل الافريقي وافريقيا عموما وبطرق التجارة القديمة، وبالخصوص تجارة الرقيق والعبيد قديما إلى تجارة البشر اليوم، والتي تعرف حضورها بالمنطقة، عبر شبكات تتجار في المهاجرين الأفارقة خصوصا النساء والأطفال وتوظفهم في العمالة (خدم البيوت) والتسول والدعارة وغيرها.

في النهاية سنعتمد على المقاربة السوسيو-أنثروبولوجية (Socio-anthropological approach) في تفكيك عناصر هذا العمل، باعتبار أنها ستفتح لنا مجالا للمقاربة البين- تخصصاتية ( Inter-disciplinary approach) للموضوع، أما بالنسبة لميدان البحث سيتركز ذلك بمنطقة تامنغست بجنوب الجزائر، حيث ستكون هذه المنطقة مجالا لبحثنا هذا كما هو موضح في المبحث التالي.

### 1- مكان وجغرافية البحث:

تامنغست ولاية جزائرية تقع بأقصى جنوب البلاد على ارتفاع 1400م من سطح البحر، بمساحة كلية لها تقدر 556.185 كلم2، يحدها شمالا ولايتي غرداية وورقلة ومن الشرق إليزي ومن الغرب ولاية أدرار ومن الجنوب دولتي النيجر ومالي، يقطنها حسب احصاء 2008 أكثر من 176.637 نسمة، منهم ما يقرب من 100 ألف بمدينة تامنغست، تتوزع مورفولوجيتها السكانية على شعب الطوارق، الحسانيين البيضان، كنتة (الشرفة والمرابطين)، الأفارقة، وغيرهم من سكان المدن الجزائرية الأخرى[1].

خريطة 01 و02: تحددان موقع ولاية تامنغست

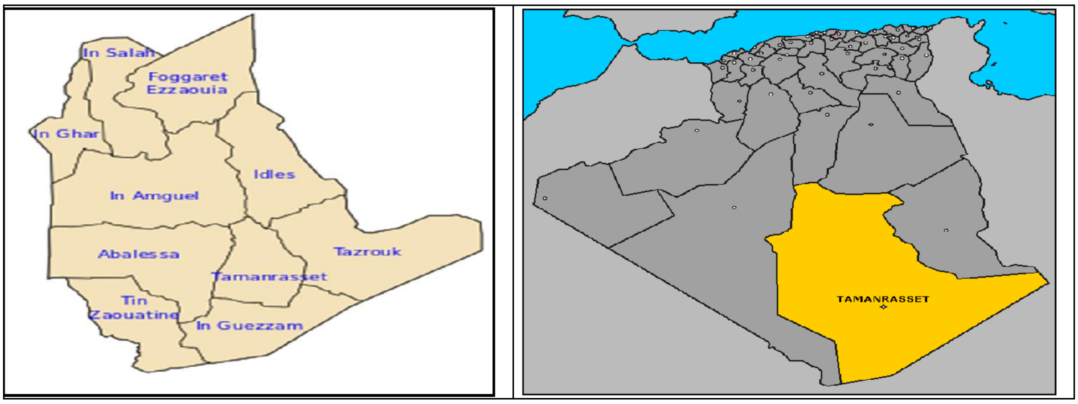


**المصدر:** ولاية تامنغست، (https://fr.wikipedia.org/wiki/Wilaya_de_Tamanrasset)

بالنسبة للشعب الأصيل بالمنطقة هم الطوارق، وما يعرف بقبائل "الايموهاغ" البدوية وأتباعها من قبائل "الامراد" "كيل أوللي"، أما بقية الجماعات التي تم الحديث عنها سلفا، فقد استوطنت المنطقة بعد حركة هجرة متتابعة امتدت على فترات متفرقة، وكانت نتاج الفعل البيئي والمناخي أو التنموي بالمنطقة.

بالنسبة لحياة الشعب الطوارق البدوي فإنها كانت قائمة على اقتصاد الرعي وتربية الماشية (قطعان الابل والماعز بالأخص)، إضافة إلى تجارة القوافل، حيث كان هؤلاء الطوارق يسيطرون على طول الطريق التجاري الذي يمر عبر أراضيهم إلى بلاد السودان، وبين أوادان وجنوبه حتى شمال نيجيريا وذلك على الأقل منذ أوائل القرن 15م، وقد وجه الطوارق مع بداية الغزو البرتغالي – الذين كانوا أول الأوروبيين الواصلين لشواطئ غرب افريقيا–[2]نشاطهم الاقتصاد نحو تجارة الرقيق، باعتبار أن هذه الأخيرة كانت إلى جانب الذهب أهم صنفين مربحين في ذلك الزمن، وإلى جانب ذلك احتفظوا بالسيطرة على هذه الطرق، كتب في ذلك **المستكشف الألماني هاينرش بارث (Heinrich Barth)** (1821–1865) أن **أمنوكل الهقار "جيماما"** كان يسطر في الفترة التي زراها فيها المنطقة على جميع النشاط التجاري الذي يجري عن طريق القوافل بين مرزوق وتمبكتو[3].

عموما، مكّن اندماج الطوارق في تجارة الرقيق من بلاد السودان، أن أوجد هؤلاء ما سمي بطبقة "الأكلان"، الذين تم شراءهم أو سلبهم من بلاد الساحل الافريقي المعروفة قديما ببلاد السودان[4]، في هذا السياق يورد **الباحث الجزائري خياط سليم** مثل تاماشكي يقول: "كل انسان خلقه الله، أما آكلي فلقه التارقي"[5].

لماذا تركيزنا على هذه الفئة؟ وما علاقتها بالدراسة التي نشتغل فيها على موضوع الوصم للفئة السوداء من المهاجرين من الساحل الافريقي إلى هذه المدينة؟

البحث في هذا الموضوع يحتم علينا كما سلف الذكر العودة أولا إلى سياقات التاريخ من خلال العودة بالبحث في الصلات السوسيو اقتصادية، التي ربطت شعب الطوارق ببلاد السودان، ومن ناحية ثانية سيكون الربط جغرافيا لصلات الأمكنة ببعضها، حيث المجال كان ممتد أمام حركة الذهاب والاياب، ومنه لم يكن قد طرح

مفهوم الحدود بعد بحدته التي ستعقب مؤتمر برلين سنة 1884[6]، حينما ستمزق جغرافية افريقيا بين الكولونياليات التقليدية، وتفصل أواصر الصلات بين شعوبها.

في هذا السياق، يمكن القول أن هذا المؤتمر لم يفصل فقط كيانات بعينها، بل فصل شعوبا وقبائل عن بعضها، هنا التركيز في الطرح على شعب الطوارق، الذي تفكك كيانه المتواجد في العديد من دول الساحل إلى جانب الجزائر وليبيا.

جانب آخر يحتم علينا العودة والبحث فيه وهو المخيال والذاكرة الجماعية إلى جانب الرواسب السوسيو ثقافية المرتبطة بثنائية الابيض والأسود في هذه المنطقة، حيث الكثير من المدركات والممارسات تصاغ ويتفاعل من خلالها ووفقها في اطار علاقة هذه الثنائية وتراتباتها.

لأجل هذا كان لابد من العودة للنبش في التاريخ والجغرافيا والميراث اللساني المحكي والمكتوب، وكذا الذاكرة الجمعية، أملا في استنطاق سوسيولوجي وانثروبولوجي يعيد لنا رسم متخيل لواقع كان سائدا لتجاورات المكان والشعوب وصراعتها العرقية والثقافية، التي امتدت للهيمنة وانتجت في قوالب التجارة والاقتصاد ما عرف بتجارة الرقيق والعبيد.

هذه الحيثيات ستمكننا من فهم طروحات الحاضر وصراعاته وأوصامه، فالمخيال الجمعي مزال مثقلا برواسب الماضي وتراتباته، ولذلك يظل جاثما بثقله في رسوم حدود العلاقات وتجاذباتها، ومصطلح "السوادين"، التسمية والوصم الذي يعرف بها مهاجروا الساحل خصوصا بتامنغست، يأتي في هذا السياق ليؤكد أن أنين الماضي وان خفت حدته لايزال حاضرا ويعاد انتاجه، فرغم مرور كل هذه الأجيال، لاتزال الذاكرة الجماعية تحيّن الماضي وتراتباته، حيث كان نظام الرق شائعا بينها.

في هذا السياق، نعود لذاكرة الاستقلال حيث سنة 1963 كانت سنة مفصلية لتاريخ نظام الرق عند مجتمع الطوارق ومنطقة تامنغست عموما بتعبير **محمد السويدي**، باعتبار أن الدولة الوطنية ستعمل على اصدار قانون لتحريم الاسترقاق وتفعيله، وإن كان أن ذاكرة الحرب بالمنطقة تتذكر منعه من طرف الاستعمار الفرنسي أولا بعد دخوله منطقة الأهقار والصحراء الجزائرية، غير أن ذلك ظل شكليا باعتبار عدم توفر العناية الكافية من طرف الاستعمار لموضوع تحرير العبيد عمليا، ولأجل ذلك تدخلت السلطة المحلية ومؤسسة الدفاع ممثلة في الدرك الوطني لتحرير العديد من العبيد من ملاكهم بالمنطقة [7].

لا نتوفر على احصائيات تخص عدد هؤلاء، ولكن يمكن العودة إلى عدد من الأعمال التي اشتغلت في ذلك، منها عمل **الأب دي فوكو**، الذي قدر عدد سكان كيل الهقار سنة 1913 بـ 6.000 نسمة يمتلكون 3.000 من الخدم جميعهم من السود، من جهته كتب **هونري لوت** عن احصائيات التعداد السكاني لسنة 1944، حيث ذكر أن ساكنة المنطقة شملت في توزيعها الديمغرافي على 6344 من البدو منهم 4249 من الأحرار و1905

من العبيد، بدورها **جريدة لوموند** الفرنسية قدمت احصائيات سنة 1965 أكدت فيها أن تمنراست كانت تضم في هذه الفترة حوالي 2000 من العبيد[8]، من جهته قدم **الباحث الجزائري اسماعيل العربي** عدد من الاحصائيات التي خصت تاريخ لاحق لذلك بالمنطقة، حيث حدد عدد الطوارق في 4400 نسمة و4000 من الزنوج و3500 من الحراثين المستقرين وعدد صغير من العرب الذين يشتغلون في التجارة[9].

عندما نتفحص هذه الأرقام والاحصائيات نكتشف عدد من التناقضات، حيث محددا الزمان والمكان يصبحان ذا تأثير في ذلك، فالتسلسل والتقدم الزمني عادة ما ترتفع معه المتوالية الديمغرافية، غير أنه في حالات الاحصائيات المقدمة نجدها متضاربة باتجاهها نحو الارتفاع عوض الانخفاض، فما هي المرتكزات التي استخلصت من خلالها هذه الاحصائيات؟، وهل ديمغرافية تامنغست ارتفعت بشكل تطوري أم انخفضت في فترات معينة مثلها مثل حالة الاحصائيات التي قدرت عدد العبيد بالمنطقة؟، أما بالنسبة للباحث الجزائري كيف استقى هذه الاحصائيات حسب اللون والمكانة والطبقة؟، مع العلم أن هذه الفترة جاءت بعد قانون تحريم الرق بسنوات، كما أنه لم يذكر مصدره في ذلك؟.

**2- جدلية ثنائية الأسود والأبيض وإشكالية الوصم بالمنطقة:**

بداية الانسان في عموميته يمكن أن نقسمه في المعمورة على لونين بيولوجيين هما اللون الأبيض الذي يتنوع بين الشقرة والسمرة، أما اللون الثاني فهو الأسود بدوره يتنوع بين السمرة إلى الدكنة، غير أن هذا الطرح البيولوجي يمكن أن يتأثر بما هو ثقافي، فما نقدمه وفق هذين الثنائيتين (الأبيض والأسود)، يمكن يغيره الثقافي، ولنا في ذلك مثالا بأهل السودان، الذين يسمون الانسان الأبيض مهما كانت درجة بياضه "أحمر"، أما الأسود، الشديد السواد فيسمى "أخضر"، ولا يستعملون له كلمة أسود[10].

من جهته **فرانز فانون** يرى أن صورة الانسان الأبيض والأسود هي نتاج خيال الرجل الأبيض، وقوته، فالأسود حسب **فانون** لا يوجد ولا الأبيض كذلك، فالتجربة تقول لا يوجد بالمعنى الدقيق لوجود كائن ذو بشرة بيضاء تشبه الورق الأبيض والطباشير أو الكفن والجير، إن هذا التوصيف حسب **فانون** لا يحيل في نهاية المطاف على شيء غير الفراغ، هذا الأخير –كما سبق الذكر- استمد حضوره من قوة مخيال الرجل الأبيض[11].

أنثروبولوجيا يمكن تفسير ذلك برده إلى أصله الثقافي، فكل شعب له محموله الثقافي وميراثه الذي يحدد به الألوان وتمثلاته لها، غير أن المشترك الدلالي عندنا والمستقى من اللغة العربية هو ربط الانسان بمعنى السمرة، فكلا من أب وأم البشرية اسمهما مستنبط لغويا من السمرة وذي دلاله عليها، فآدم من الأدمة وحواء من الحوّة وكلا الكلمتين تدلان على معنى السمرة[12].

من ناحية أخرى يقدم كل من السود والبيض آراؤها اتجاه بعضهما، في هذا السياق استنكر **مونتيسكيو (Montesquieu) (1689-1755م)** فكرة أن الله وضع روحا خيرة في جسم الأسود[13]، وهذا بقوله: " ولا

يلقَى في الذهن كون لله البالغ الحكمة قد وضع روحًا، روحًا طيبة على الخصوص، في جسم تام السواد"، وبهذا فقد شرعن بشكل عنصري هذا المفكر للجنس الأوروبي الأبيض تفوقه واسترقاقه للأفريقي الأسود، وبنى جزء من أطروحته في روح القوانين على "كون اللون هو جوهر الانسانية"[14]، بالمقابل فإن الأساطير الإفريقية ترى أن البشرية كلها سوداء، وحتى الله تعالى عزّ جلاله تراه أسود، ومن أبيضّ من البشر حسب هذه الأساطير فهو بسبب كثرة الولادات بينهم.

بالمقابل لذلك وفي أخبار الزمان للمسعودي فإن أصل السود يعود في الأثر إلى نوح عليه السلام، "حينما دعا ابنه حام بتشويه الوجه وسواده، وأن يكون ولده عبيدا لولد سام، وسبب هذه اللعنة أن حام ضحك من والده عندما عرّتهُ الرياح وأزاحت عنه ثيابه، غير أن هذا الطرح مرفوض عند السود باعتباره حسبهم يشرعن لفكرة العبودية"، كما أنه يتضمن وصم مشين لهم بتشويه وجوههم بعد لعنة مسلطة عليهم[15].

من ناحية أخرى وصم الأسود ومُثّلَ بأنه "نوع من طمي الأرض وروث التاريخ وذوات في ما وراء الخضوع، وهو النمط الأولي لذات مسممة ومفحمة، وهو أيضا مخلوق صنعت حياته من حطام متفحم"[16]، هذه الصورة القاتمة المحملة بالتميز والعنصرية كانت نتاج عصر الرق الرأسمالي الأوروبي بإفريقيا.

### 1.2. الرق، التمييز وطروحات تفوق الجنس الأبيض:

بالنسبة لعلاقة الرق باللون، فلا ارتباط بهما في بداية التأريخ له، إذ شمل الاسترقاق كل الألوان وتعددت وسائله، غير أن ارتباطه باللون الأسود هو محصلة الاسترقاق الأوروبي للأفارقة من ذوي الأصول الزنجية، هنا يرى **الباحث محي الدين صابر** "أن القضية هنا ليست قضية رقيق وحسب، ولكن لأن عملية الاسترقاق الإفريقي اتخذت صورة اقتصادية وسياسية معينة، فكان في الوقت نفسه يمثل وضعا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا معينا"[17]، هذا الوضع انتهى إلى التوطيد لنظرية تفوق الرجل الأبيض على الأسود، وهو ما كان فاتحة لتعاظم فكرة التمييز العنصري بين الشعوب من اللونين، ولذلك عمل الاسترقاق الأوروبي للأفارقة على "غرس فكرة التفوق وبالمقابل الخوف من التماثل بعد تحرر هؤلاء وهو ما يمكنه أن يفقد الرجل الأبيض مميزات تفوقه وسلطته على الأفريقي، ولذا فقد سعى الأوروبيون بكل ما يملكون من الابقاء على آثار الذل الاجتماعي بين زنوج افريقيا، ومن ثم ترك وصمة التمييز العنصري الذي يبقى المظهر الدائم للرق والخلفية المرجعية له، وكل هذا يعكس أن التمييز كان وسيلة دفاع الانسان الأبيض عن المكاسب البيضاء والاستماتة في الابقاء على أوضاع قديمة، لم يعد ممكنا أن تعود"[18]

### 2.2. ثنائية الأبيض والأسود وإشكالية الغيرية والوصم بالمنطقة:

هذا الطرح لثنائية الأبيض والأسود، الذي شكل جزءا من تاريخ وبنية الرق بإفريقيا، يمكن أن يقدم لنا ميكانيزمات اسقاط ذلك على علاقة جنس أبيض غير أوروبي في علاقته بالجنس الزنجي الافريقي، نختصر ذلك في جزء من ساكنة الصحراء الكبرى ومنها الجزائر، ونأخذ في ذلك نماذج من منطقة الهقار بالجمع وليس المفرد،

باعتبار أنها كانت رمزا وحيزا مجالي لتواجد شعب الطوارق، غير أن الظروف الجيوسياسية والاقتصادية والاجتماعية والهجروية اللاحقة، أدت إلى تلون الديمغرافية الساكنة بها.

لقد أدت ظروف الاستقلال وتفكك أنظمة الانتاج التقليدية بالمنطقة، إلى جانب اندماج السلطة التقليدية في السلطة المحلية وتبني أنظمة تنموية بهذه الجهة[19]، يضاف لها جانب التحولات البيئية والمناخية (الجفاف والمجاعة) على مستوى الساحل الافريقي وغيره، كل هذا كان جذبا لهجرات داخلية وخارجية، ما أسهم في تحول كبير في التركيبة الديمغرافية بالمنطقة، حيث أصبح مجال المنطقة حاضنا لمجموعات سكانية جديدة تضم ثنائية البيضان والسودان بالوصم العام.

هذه الثنائية الأخيرة سنحاول من خلالها الغوص في التاريخ الماضي والمحكي، الحاضر غير المنسي، الذي لا تزال أطيافه على محيا كثير من الممارسات، التي تترجم في علاقات الأبيض بالأسود، هنا نستحضر بشكل مباشر علاقة سكان المنطقة (ذي البشرة البيضاء) مع الأفارقة (ذي البشرة السمراء)، ونطرح باراديغم الوصم، الذي سيخص الفئة الأخيرة التي ستنعت بـ "السوادين"، لماذا ذلك؟، ما علاقته بالغيرية؟ هل للوصم علاقة مباشرة باللون، أم أن ذلك مرتبط بالأصول والجغرافيا؟، أم بالتاريخ والماضي ورواسبه في الثقافة والذاكرة؟

كيف يمكن تحليل ذلك سوسيولوجيا وسيميولوجيا؟، هنا يمكن التأكيد على أن سيميولوجية اللون أثرت في جزء من تاريخ البشرية، ونستحضر هنا تاريخ الرق الأوروبي بإفريقيا، وكيف أدى ذلك – كما سبق الذكر- لإشاعة تفوق الأبيض؟، ولأجل الحفاظ على المكاسب البيضاء حدثت الحروب والصراعات وتفشت العنصرية، نستحضر في ذلك أيضا تضحيات السود من أجل التحرر من سيطرة وطغيان وعنجهية البيض في الجزائر وافريقيا وأمريكا ونموذج ذلك فرانس فانون ونيلسون مانديلا ولوثر كينج وغيرهم كثير.

للإجابة عن هذه الأسئلة سنستعين بدارسة مهمة قام بها **الباحث الجزائري خياط سليم**، بدأها بمقال علمي نشر له سنة 2001 بعنوان: "ازدواجية مكانة الرجل الأسود عبر تقديرات الأصناف السوسيولسانية"، وألحقه بعمل كان مشروعه لأطروحته في الدكتوراه موضوعه دار حول: "الصلاح السود: تصورات وآليات تشكيل الولاية في الروايات الشفاهية للمجموعات السوداء في الجزائر"، ناقشه خلال السنة الجامعية 2015-2016 بجامعة الجزائر.

في إطار ثنائية الأبيض والأسود يطرح لنا **الباحث خياط سليم** موضوع الغيرية، ويعود في التأصيل له إلى أعمال المفكرة **دونيس جودلي Denise Jodelet**، التي طرحت الموضوع انطلاقا من موقعين الأول هو غيرية خارجية تمس حسبها البلدان والشعوب والجماعات المنضوية في فضاء وزمان منصلين ووفق ثقافة محددة توحدها خاصية وطنية أو قبلية وغيرها، أما الغيرية الداخلية فهي التي تخص عنصر الاختلاف الفيزيقي والجسدي (لون بشرة، عرق...) أو الجانب المعنوي والرمزي النابع من العادات التي تميز العلاقات واساليب الحياة، كما ترتبط أيضا

بالانتماء لجماعة (وطنية، اثنية، دينية، قبلية...) ترى في الآخر مصدر قلق ومثير للخطر[20]، ولذلك تلجأ لميكانيزمات دفاعية لتطويق غيرتها وهويتها في مقابل الآخر.

ما يهمنا نحن هو الغيرية الثانية خصوصا، باعتبارها محدد أساسي يمكن أن يفيدنا في مقاربة الوصم الحاصل اتجاه الفئة السوداء الافريقية بمنطقة تامنغست، وتحديد أسباب ودوافع ذلك، ومحاولة الفهم السوسيولوجي لمختلف العلاقات والتفاعلات الحاصلة خصوصا بين سكان المنطقة والوافدين الأفارقة.

| صورة رقم (1) المهاجرين الأفارقة الموصومين بالسوادين | خريطة رقم (2) طرق الهجرة بأفريقيا |
|---|---|
| | 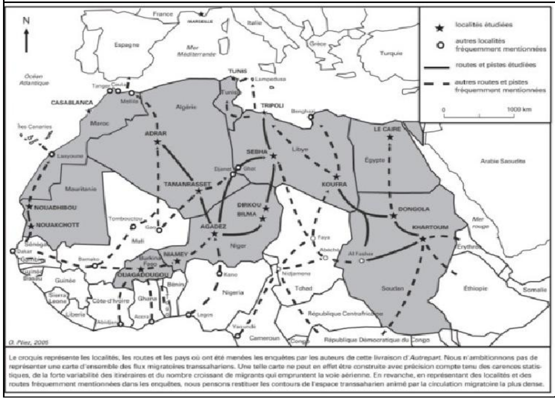 |

### 2-1.1. تمثلات الأسود الافريقي وممارسة الوصم في إطار الغيرية:

يمكن تفكيك ذلك وفق عدد من النقاط:

- نظريات التفوق التي تحدثنا عنها مع الجنس الأبيض الأوروبي في مقابل الزنجي يمكن أن نعيد توظيفها في إطار ثنائية الانسان المحلي بالمنطقة في مقابل الأفارقة الوافدين إلى تامنغست[21]، في هذا السياق صَوَّرَ العرق الأبيض وشرعن لنفسه "امتلاك القدرة والارادة على بناء حياة تاريخية، أما العرق الأسود فلا حياة ولا إرادة له ولا طاقة تخصه، إنه مجرد كتلة جامدة في انتظار عجنها على يد عرق سامي"[22].
- من ناحية أخرى يمكن أن نستحضر مرتكزات التعالي والاختلاف والتمايز والتفاضل في نفس الوقت بين اللونين، حيث عادة ما يستحضر المخيال الجمعي الأبيض صور نمطية قديمة كان يوصف ويقدم به الأسود مثل الغراب، الكحلوش، باباي، نيقرو ونقريط ونقريطة، العبد لكحل، الوجه لكحل، ذو الأسنان البيضاء، بوخنفرة، المصنن وغيرها، وهي كلها مرادفات نمطية تبرز وتنتقل من حالات اللاوعي المكبوت إلى الواقع الواعي، خصوصا في حالات التي تعرف التوتر والاستثارة بين الجنسين[23]، هذه الصور النمطية الرائجة التي يقدم بها ذوي البشرة السوداء[24] هي عامة بين العديد من المناطق، ولكن بالمنطقة يبقى الوصم النمطي هو مصطلح "السوادين".

■ إذن، الصورة النمطية عن السود الأفارقة عامة لا تزال تلاحقهم رغم انعتاق أجدادهم منذ زمن، ومنع الاسترقاق، رغم كل ذلك هؤلاء لم يتخلصوا من تلك النظرة الدونية[25]، ومن الوصم الذي يبقى يلاحقهم ويعكر صفوة حياتهم، ولذلك اعتبرت بعض الدراسات أنه يصعب المصالحة بين ذاكرة العبيد وذاكرة الأسياد[26].

■ يمكن أيضا أن نستحضر في هذا السياق أن المخيال الجمعي للرجل الأبيض عادة ما يعيد تحيين الأحداث والماضي بما يحمله من صور وميراث لعلاقة ماضوية مع الأسود، في هذا السياق عادة ما ينظر الكثير من العرب إلى الأسود من منظورين أساسين: الأول فوقي استعلائي يضعهم في أعلى الهرم، بينما السود في أسفل السلم الاجتماعي، أما الأساس الثاني فإنهم لا ينظرون لهؤلاء إلا وقد تحينت وارتسمت لهم صورة ذهنية للرق والاسترقاق وسوق النخاسة السائد في الزمن البائد[27]، هذا الحال يمكن أن نسقط جزء مهم منه على حال العلاقة بين الانسان المحلي بالمنطقة والوافدين الأفارقة خصوصا من النيجر ومالي.

■ أيضا يمكن اعتبار أن وصم الأفارقة بالسوادين جاء في سياق الطرح الغيري، فمن المعلوم أن تأسيس تامنغست كمدينة ليس بالبعيد، كما أنها لم تكن تتوفر على معالمها التجارية والصناعية الحالية ولا حجم الديمغرافية المتنوعة بها اليوم، بالمختصر كان المجتمع بها مغلقا، ولذلك جاء الوصم نتاجا للحركية الهجروية اتجاهها، فوصم السكان المحليين الدخلاء من مختلف الجهات بأوصام تعددت تبعا للون أو الوظيفة أو المهنة، في هذا السياق يأتي وصم السوادين ليرتبط باللون أكثر منه الوظيفة أو المهنة لأنهم يمارسون ذلك باختلاف.

■ في هذا السياق، وصم "السوادين" عند البحث في حضوره بين مجتمعات شمال أفريقيا، وجدناه أيضا في تونس[28] إلى جانب مرادفات أخرى أقل استعمالا بمنطقة تامنغست.

■ في سياق متصل فإن استحضار المشهد العرقي عادة ما يفتح المجال للوصم الممنهج، فعند استحضار صورته وبنيته المخيالية يحضر الأثر، الملمح، وتحضر العنصرية والتمييز وهي جزء من مسارات اللاوعي الأساسية، وهي في نفس الوقت طريقة لإرساء القوة والسلطة والتسيّد والاستعلاء في مقابل الضعف والخضوع والاستعباد والحقارة والانخفاض، ومنه عند العودة إلى العرق تبرز مصوغات الوصم، ويصبح ذلك كله عملية مخيالية ومكان لقاء ما مع جزء الظل والمناطق المظلمة للاوعي، ومن ثمّ فإن الانسان الذي عُيّن في عرق ليس بإنسان راكن، إنما سجين صورة ظلية ومفصول عن جوهره وهي من أسباب بؤس وجوده، حسب **فرانز فانون**[29].

### 2-2.2. البنية الاجتماعية والتراتب الطبقي بالمنطقة كمغذي للوصم:

من المعروف أن معظم الجماعات، التي تستوطن جغرافية تامنغست، لها هرمية وتراتب للمكانات ( Les Statuts) سواء بين القبائل أو بين الأفراد، غير أن الطوارق يبقى الشعب الأكثر محافظة إلى حد ما على الميراث الطبقي الخاص به، الذي ينقسم على ثلاثة طبقات كبرى وهي الأعيان في رأس الهرم ثم الأتباع (امراد) في أوسطه وانتهاء أسفل الهرم حيث يقبع العبيد السود[30]، إلى أن تفصيل تفكيك هذه الطبقات يمكن أن يوصلنا إلى تعداد

خمسة طبقات متباينة وهي: النبلاء والأسياد اهقارن (إماجغن) التي يعود أفرادها في شجرة نسبهم إلى الملكة تينهنان، وبعدهم تأتي طبقة كيل للي (الامغاد) وهم في العادة من فئة البدو التي تمتهن تربية ورعي الماعز، ثم طبقة اينسلمن وهم الفقهاء والطلبة ومعلمي القرآن، وفي التسلسل الرابع تأتي طبقة اينهضن (إينادن) وهم الحرفين والصناع وأخيرا في أسفل الهرم الطبقي يأتي الخدم (أكلان) أو آكلي وهو في لغة الطوارق الأسود وليس العبد، وبعد ظهور الرق أصبح هؤلاء يسمون بـ آكلي نتاكراه أو نتاكراش أي الأسود المملوك، وبالتالي فإن كلمة آكل تعني السواد.

هذا النسق الدلالي لآكلي وهو السود، سيقابله وصم فئة جديدة ستمتهن نفس الوظائف التي يقوم بها هؤلاء، ولأن هؤلاء وفدوا من افريقيا جنوب الصحراء سيوصمهم اللسان المحلي "بالسوادين"، وسيصبح هؤلاء في أسفل الهرم الطبقي، وسيرتبطون بمهن ومكانة دنيا في أسفل هذا السلم، وفق "منطق الزريبة"[31]، بتعبير **أشيل مبيمبي**.

في هذا السياق يمكن أن نوظف أثر الرأسمالين المادي والرمزي للأهل المنطقة في مقابل السود الأفارقة، ومن جهة أخرى يمكن أن نقول "ما أشبه اليوم بالبارحة" فيما يخص وضع العديد من الأفارقة ليس من منطق أننا نسوغ لفكرة استرقاق مستحدث ولكن للحديث عن امتهان السود الجدد المهاجرين إلى تراب المنطقة لما يسمى بالخدمة والسخرة، وهي وإن كانت لا تعني أن هؤلاء عبيدا ولكن هم في وضعية السخرة والخدمة، التي تحيل إلى معنى التبعية والدونية، وفي نفس الوقت عجز هؤلاء عن امتلاك سبل تحررهم الاقتصادي نظرا لفقرهم، وبالتالي رغم أن هؤلاء أحرار ولكنهم سيظلون خداما لأرباب عملهم، هذا ما يسمى في الدراسات الأكاديمية المعاصرة بـ "أشكال التبعية القصوى Formes extrêmes de dépendance[32].

لقد مكن الميراث المادي والرمزي العديد من ساكنة المنطقة (بعضا من الطوارق، الحسانيين وحتى تجار الشمال)، من ممارسة معنى التسيد والسيادة في مقابل الوافدين الأفارقة، بفضل ذلك، أصبحت نسبة مهنة من هؤلاء تستهجن وتستحقر الأعمال الشاقة والدنيئة في المخيال المحلي، بالمقابل لذلك أوكلت هذه الأعمال للأفارقة الوافدين الموصومين بالسوادين.

هنا يمكن أن نسجل ملاحظتين أساسيتين حسب **الباحث المغربي رحال بوبريك**، الأولى هي أن هؤلاء الأفارقة يبقون في وضعية سخرة وخدمة ووضعهم يحاكي إلى حدّ ما حالة العبد المعتق، الذي لم يستطع أن يوفر لنفسه سبل العيش، التي تمكنه من فك الارتباط والتبعية مع وضعية خدمة رب عمله، فرغم تملك هؤلاء شروط الحرية، لكن هذا الوصم الذي يتبعهم، بالإضافة إلى وضعهم كخدام، يجعلهم يظلون قابعين على المستويين الرمزي والاجتماعي في رتبة دنيا[33]، مع تسجيلنا هاهنا أن بعض الأفارقة يحاولون اخفاء أصولهم القبلية (الهوسا، البومباردا والفولاني وغيرها) والادعاء أنهم طوارق مالي أو النيجر أو...الخ، لكن رغم ذلك يبقى هؤلاء بحكم الوصم الذي يشملهم، وكذا وضعية السخرة والخدمة التي يقومون بها في وضعية أسفل الهرم الاجتماعي، فإذا كان في زمن

العبودية "الخضوع من أجل الحرية والانعتاق"[34]، فإن هؤلاء اليوم "خضوعهم لأجل العيش.."، الحاجة إلى ذلك جعلت العديد من هؤلاء يذوق الذل والهوان ويسمع يوميا، بل كل ساعة، لا بل كل ربع ساعة وصمه ومناداته "يا السوداني".

الملاحظة الثانية التي يمكن أن توقف عندها في عمل **الباحث رحال بوبريك** هي أن السخرة هي درجة ومستوى من العبودية، فقط هي تختلف عن العبودية في معنى التملك، لكن الوظيفة والدور الذي يقوم بهم سواء المسخر أو العبد يكاد لا يختلفان، ولو أن سياق الزمن والوضع يختلف، هنا يشبه الباحث حالة عبيد المنازل في القرون الخوالي بخدمة المنازل اليوم، وهنا يؤكد على العبودية لا تنحصر في الانعتاق ومنح الحرية بقدر ما هناك عوامل أخرى مؤثرة[35].

## 2-2-3. في علاقة المخيال والذاكرة الجماعية والجغرافيا بإشكالية الوصم:

في هذه النقطة يمكن الحديث عن أن الذاكرة المحلية والمخيال الجمعي يمكنه أن يُحَيِّنَ الرواسب المرتبطة بتاريخ قد مضى، إنه تاريخ يرتبط بتجارة الرقيق، وكيف كان أسلاف أهل المنطقة من النبلاء يبيعون ويشترون في هؤلاء، ولكن طبيعة التحولات والتغيرات التي عرفها التاريخ العالمي والمحلي، وتحرر السود، ومنع الاسترقاق، كله أدى إلى أن أصبحت هذه الفئة تتمتع بالحرية والحراك من جغرافية إلى أخرى، إذا لقاء هؤلاء بالإنسان المحلي هو الذي أدى إلى العودة البدأ ولحظة التأسيس لهذه العلاقة، فلا يمكن للمخيال والذاكرة أن تنسى مكانة الآخر في اطار المغايرة والتمايز.

إذن، الذاكرة الجماعية المحلية لاتزال تحتفظ بما اختزنته بداخلها، ولا يزال هؤلاء يعاملون بلون بشرة لم يختاروه، ولا وضع أرادوه، ومن ثمّ يبقى أي اندماج لهؤلاء وسط المجتمع المحلي صعب، في ظل تقاطعات متعددة وحساسيات تتغذى من ماضي ذاكراتي مثقل بالرواسب والمواقف اتجاه هذه الفئة وأزمنة تأسيسها[36].

بالنسبة للجغرافيا يمكن الحديث أن وصم السوادين ارتبط في معنى آخر بالأصل الجغرافي والحضاري لهؤلاء، فمن المعلوم أن معظم افريقيا جنوب الصحراء كان مقسمة إلى عدد من البلاد المسماة بالسودان ومن ذلك السودان الغربي والأوسط، ولأن الأركيولوجيا بدورها اعتبرت أصل البشرية بإفريقيا من السودان، فقد ارتبط ذلك بهذا الوصم، الذي تم إعادة تحيينه بما يتوافق وأصل هؤلاء الوافدين إلى المنطقة.

إذن، الذاكرة تعود لاستحضار التاريخ بما يحيل إلى المرجعية والمرتبة الجينيالوجية للسود وأصولهم، وكذا إلى النمطية اللسانية المتداولة لعصور تاريخية طويلة في ربط العبيد قديما بالسود[37] والسودان، ومن ثمّ ظلّ العبد مرادفا للأسود والعكس بالعكس[38]، في هذا السياق كثيرة هي البلاد الموصومة في ذلك بإفريقيا، نذكر للتمثيل لا الحصر، النيجر ونيجيريا المرتبطة بالكلمة الفرنسية **Nègre** التي تعني الزنجي، وكذلك غينيا، كينيا، وغينيا بيصاو وغانا المرتبطة بكلمة **Gnawa** أو "كناوة وهي فرق موسيقية أفرادها زنوج، وهم في الأصل ينحدرون من عبيد افريقيا، السودان الغربي أساسا، ويرتبط اسمهم بكينيا وغينيا"[39] خصوصا.

**الصورة رقم (1): صورة لفرق كناوة/غناوة سنة 1920**

**المصدر:** موسوعة ويكيبيديا ،
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%BA%D9%86%D8%A7%D9%88%D8%A9

ومن خلال هذا وبالعودة إلى عدد من الأعمال نجد أن هناك ربط مباشر ذا محمول دلالي وتاريخي بين العبيد والسود والسودان، في هذا السياق تم ربط بحروف لاتنية بين العبيد والسود " Tout comme aux esclaves noirs (abid) importés d'Afrique"[40]، وبذلك أصباح لفظ عبد يعني العبد الأسود دون غيره من العبيد، وأكثر الرواة يشتركون في رأي ثابت يربطون فيه العبد باللون الأسود، بالمقابل كان العبد المملوك أبيض اللون[41].

في هذا السياق وللتوضيح أكثر يرتبط اصطلاح السود بالزنوج أيضا، وعند العودة إلى لسان العرب **لابن منظور** على لسان الباحث التونسي **أمين الزواري**، نجده يعرف أولا "الزنج مفرد جمع زنوج، والزنوج جيل من الناس بالجلد الأسود والشعر الجعد والشفة الغليظة والأنف الأفطس، وهم سلالة من القبائل الافريقية، يرجعها إلى جيل من السودان، التي تعني في الغالب عند **ابن منظور** لون البشرة عند هؤلاء، كما يشار إلى أصولهم السودانية (بلاد السودان)"[42].

### 3- الوصم وإشكالية اندماج الأفارقة بمنطقة تامنغست:

إشكالية الاندماج أو الاستبعاد والاقصاء هي من الظواهر الانسانية العامة التي عرفتها وتعرفها جميع البشرية، ولا تعني بالضرورة فقط المنطقة، ولكن باعتبار هذه الاخيرة هي مجال دراستنا يمكن أن نلخص مقاربة موضوع الوصم وإشكالية اندماج الأفارقة الموصومين في عدد من النقاط المختصرة:

**1**. بالنسبة لبعد التعليم يمكن القول أن الأطفال الأفارقة الذين ينتمون للفئة الموصومة بالسوادين غالبيتهم الساحقة بدون تعليم نظامي، ومعظم هؤلاء مستبعدين من ذلك وليس لهم فرص ممكنة لذلك، فقط التعليم الديني، الذي يتوفر إلا حدّ ما في بعض الزوايا بعينها بالمنطقة.

**2**. بالنسبة لُبعد الشغل، غالبية هؤلاء الأفارقة الموصومين بالسوادين يشتغلون في القطاع غير الرسمي، ولا يتوفرون على الضمان أو التقاعد، كما تشتغل نسبة منهم في المنازل والرعي وغيره، ورغم هذا الاندماج الجزئي، إلا أن ذلك لا يؤدي إلى معنى التضمين الحقيقي لهم.

**3**. من خلال ملاحظة لنوع الأشغال التي يشتغلها الأفارقة بمدينة تامنغست نكتشف أن هؤلاء مرتبطين "بالمهن والأعمال الواطئة اجتماعيا"[43]، والتي لا يشتغلها أبناء الساكنة المحلية، لتمثلاتهم التي يحملونها عن طبيعة هذه الأعمال، وبالمقابل فإن نسبة هامة من الأفارقة هم في وضعية هجرة غير شرعية، كما أن مستوياتهم التعليمية واطئة، إضافة إلى ظروفهم الاجتماعية الصعبة، كل هذا حرمهم من أي مساواة ممكنة في مجال فرص سوق الشغل، وجعلهم بالمقابل يرضون بما يتوفر خارج اختيارات الفئة الساكنة من الجزائريين بالمنطقة.

**4**. في بعد السكن يعرف هؤلاء الأفارقة نوع من الاستبعاد بنوعيه الارادي واللاإرادي، حيث يعمل معظمهم على التجمع في أماكن سكن جماعية علنية وسرية تفتقد لكثير من الشروط الصحية، وبالمقابل ونتيجة أن أغلبيتهم وفدوا بطرق غير شرعية، فإن السلطة لم تمكنهم من هذا الحق، وبذلك يبقى هؤلاء مستبعدين من فرص السكن العمومي اللائق.

**5**. بُعد التفاعل في الأكل مثلا والحلاقة عند هؤلاء، تكون عبر مطاعم متنقلة (درجات وعربات بسيطة) يملكها أفارقة مثلهم، توفر الأكل لهؤلاء وفق تقاليد كل مجموعة، تبعا لثقافتها الغذائية المرتبطة ببلدها الأصل وبأثمان في المتناول، لكن ذلك يفتقد بدوره للكثير من الشروط الصحية، الأمر نفسه ينطبق على الحلاقة حيث يستبعد هؤلاء أنفسهم مثلما يستبعدهم المجتمع المحلي من الحلاقة في نفس المحلات، أسباب ذلك عزاها بعض الحلاقين لمشكلة الأمراض المتنقلة، حيث بعض الأفارقة يحملون فيروس فقدان المناعة، هذا يذكي خوف الساكنة المحلية من انتقال الأمراض إليهم عبر استعمال نفس الأدوات، وبالمقابل لهؤلاء يوجد حلاقين خاصين بهؤلاء الأفارقة يتواجدون عبر محلات بسيطة في أحياء إقامتهم، أو حتى بالحضور إلى أماكن تجمعهم أثناء انتظارهم لفرص الشغل اليومي.

**6**. الأمر نفسه ينطبق على اختيار شريك الحياة، حيث جانب كبير من الاقصاء والاستبعاد في ذلك سواء في شكله الارادي أو اللاإرادي، فلا يمكن تخيل زواج مختلط بين فئات من الساكنة المحلية والأفارقة، فالتزاوج مثلا مزال غير ممكن بينهم وبين الطوارق أو الحسانيين مثلا، باعتبار أن الإرث الاجتماعي والعرفي والثقافي والرمزي والطبقي لهاته المجموعات يؤثر بقوة في مسألة التبادل الزواجي واختيار شريك الحياة، هذا أدى حسب رأي **ميديمان (Muddiman)** إلى إشاعة أشكال من التمييز واللامساواة الاجتماعية والثقافية والرمزية بعد ربط ذلك بجانب العرق واللون والطبقة خصوصا [44].

**7**. بالعموم يمكن القول أن عوائق عديدة تحول دون الاندماج الاجتماعي والثقافي للسود الافارقة بتامنغست، من ذلك – كما سبق الذكر- التمييز عن طريق اللون والعرق والاصل إضافة إلى الانحياز الطبقي[45]، هذا الوضع جعل هؤلاء الأفارقة يعملون بشكل من العزلة في إطار جماعاتي لتحقيق اندماجهم الخاص بهم، في مقابل الاقصاء من المجتمع العام، المختلف في لغته وعاداته وتقاليده وهويته عنهم.

**8**. في هذا السياق إذا كان هذا الوضع قد ساهم بشكل عام في انتاج وضعيات لاستبعاد هؤلاء الأفارقة، فإنه بالمقابل لذلك، فإن جماعات المجتمع المحلي بدورها تستبعد طواعية نفسها من الاندماج الاجتماعي مع هؤلاء في العديد من الجوانب، هذا يشكل حسب وصف ماكس فيبر **(M. Weber)** أحد أشكال الانغلاق الاجتماعي، الذي يحدث نتيجة عوامل ناتجة حسبه بسبب استحواذ البعض على المكاسب والمغانم والمصالح، التي تحتاج إلى نوع من الحماية والهيمنة، ومنه "فالانغلاق الاستبعادي حسبه هو بمنزلة المحاولة التي تقوم بها جماعة لتؤمن لنفسها مركز متميزا على حساب جماعة أخرى من خلال عملية إخضاعها"[46]، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن اختلاف المعايير القيمية والثقافية والاجتماعية عادة ما يجعل جماعة ما تستبعد تضمين جماعة أخرى، وهو الحال المطروح بمنطقة تامنغست، وفي الكثير من المناطق الأخرى.

**9**. إذن، هذه الأسباب تشكل عوائق للاندماج بالمجتمع المحلي، وتحيل في معناها العكسي إلى عمليات اقصاء واستبعاد وجانب من التهميش يعانيه هؤلاء، غير أنه لابد أن نوضح هاهنا أن الاستبعاد بالنسبة للأفارقة يأخذ شكلين كما طرح ذلك عالم الاجتماع **أنتوني غيدنز (A .Giddens)** الأول إرادي طوعي، حيث نسبة من هؤلاء تعمل على اختيار ذلك لدواعي غيرية خصوصا، بالمقابل لذلك آخرون يعانون من استبعاد لاإرادي[47] وغير طوعي للأسباب التي سلف ذكرها والمتعلقة بالفروق اللونية والجسدية وكذا العرق والطبقة وغيرها، هذا يجهض في الكثير من الحالات فرص اندماج هؤلاء الأفارقة وسط المجتمع المحلي، خصوصا في الجوانب الاجتماعية والثقافية والمجالية (السكن) خصوصا.

**10**. من ناحية أخرى يمكن أيضا توظيف تحليل المدرسة السوسيولوجية الماركساوية في بريطانيا، على يد **جون راكس (J. Rex)** الذي درس مسألة العنصرية وجعل منها مدرسة، وطرح بالمقابل مفهوم وضعية

العلاقات **البيعرقية** المتميزة بعناصر ثلاث هي: وضعية تنافس قصوى ونزاع واستغلال أو قمع لا تشبه الظروف العادية لسوق العمل، ومنه عادة ما يكون جانب الاستغلال أو القمع في العلاقة بين المجموعات مطروحا، كما أن هذه الوضعيات عادة ما تبرّر من طرف الجماعة المهيمنة بعبارات نظرية حتمية يغلب عليها تناغم توليدي أو بيولوجي، وقد لخّص كل هذا **جون راكس** بتأكيده على طبيعة العلاقة بين الأعراق، التي تمتاز دائما بالتفاوت، ونظام قمعي يعتمد على عناصر يمزج فيها بين الطبقة والعرق[48]، هذه الرؤية لها جانب مهم من واقع العلاقة بين المجتمع المحلي والأفارقة، فجانب الاستغلال والتمييز على أساس اللون والقمع والعنف الرمزي ممثلا في الوصم حاضر بكثافة في إطار العلاقات بين العديد من الساكنة وهؤلاء الوافدين الأفارقة، وقد تطور هذا في السنوات الماضية إلى عنف مادي شديد الوطء بين مجموعات سكانية محلية وجماعات من مهاجري افريقيا جنوب الصحراء.

**11.** في هذا السياق وبعد البحث بعمق في ذلك، يمكن ارجاع طبيعة المعاملة الحاصلة بين السكان المحليين وما يوصموهم بالسوادين من الأفارقة إلى طبيعة العنف القابع في بنية اللاوعي الجمعي عند العديد من الأفراد، يتجلى هذا أكثر في أماكن السكن المنفصلة الخاصة بالسود، حيث لا يقبل بعض السكان الاستئجار لهم لدواعي قانونية أو بسبب قضايا تميزية أو صحية، كما أن معظم الأعمال المنحطة مخصصة لهم، والعديد منهم منفصلين في الفضاءات الخاصة بالحلاقين والمطاعم الخاصة بهم، هذا الوضع إلى جانبهم وصمهم اليومي، والذي يختزلهم في صورة الوجه وسواده، جعلهم يستبطنون مثل هذه المعاملات، فهي صارت أمرا واقعا عندهم، وكل تبجح بقبول الاختلاف واستيعاب هؤلاء في اطار التنوع وكذا القول بالأخوة[49] هو كلام ظاهري لم يتجاوز ما يختزنه اللاوعي اتجاه هؤلاء ومن هؤلاء أيضا اتجاه المجتمع المحلي.

**12.** في الأخير رغم كل التحولات الذهنية والمعرفية والثقافية التي عرفتها أجيال الساكنة المحلية، فإن مسألة الاندماج مع الفئة الأفريقية الموصومة بـ "السوادين" "لازال يسير ببطء كبير على درب يزخر بالعوائق من كل صنف، وهي عوائق تنبع من المواقف المتميزة ذات الجذور العميقة في الماضي الثقافي والاجتماعي ورواسبه والتي تبين أحكامها قيمة الانسان على أساس لونه وعرقه متجاهلة ما يتسم به من استعدادات ولياقات فكرية وسلوكية"[50].

**13.** ومنه يبقى الاندماج جزئي، وفي مقابله يتواصل الرفض الاجتماعي واستنقاص من قيمة هؤلاء الأفارقة، الذين يظلون قابعين بطيفهم في الذاكرة والمخيال وما يختزنانه بداخلهما في أسفل السلمين الاجتماعي والرمزي، ومعاملتهم تبقى مرتبطة بتميزهم على أساس اثني (السودان، الأفارقة، الزنوج)[51].

**– خلاصة:**

لقد حاولنا قدر المستطاع أن نقف من خلال هذا العمل عند ثلاثة عناصر أساسية، بدأناها بمحاولة وضع المتلقي والمستهلك للنص في جو تعريفي بالمنطقة وللتجاذبات الديمغرافية الحاصلة بمجالها، في الشق الثاني كان التركيز محاولة ربط جدلية الأسود والأبيض بإشكالية الوصم، وهذا الشق بدورها تفرع إلى عدد من النقاط التي خصت بعض جوانبه، من ذلك كانت العودة في إطار التأصيل والنبش في الذاكرة والتاريخ إلى مسألة الرق والتمييز، الذي كانت تعرف المنطقة وبقية الصحراء الكبرى وافريقيا، مرورا بمحاولة الربط بين ثنائية الأبيض والأسود وإشكالية الغيرية والوصم بالمنطقة.

ضمن هذه النقطة الأخيرة سنركز أيضا على ثلاثة نقاط فرعية تخص في جانبها الأول مسألة تمثلات المجتمع المحلي للأسود وممارساتها الوصم في اطار الغيرية، مرورا بالبحث في علاقة البنية الاجتماعية والتراتب الطبقي بمسألة الوصم، وانتهاء مع علاقة المخيال والذاكرة الجمعية والجغرافية بإشكالية الوصم، لننتهي في هذا البحث إلى العنصر الثالث منه، والذي حاولنا من خلاله ربط الوصم الأفارقة بإشكالية اندماجهم بالمجتمع المحلي بمنطقة تامنغست.

**4- الهوامش:**

1. شوقي نذير، "واقع الهجرة غير الشرعية في ولاية تمنراست"، مجلة آفاق علمية، العدد 05، مطبوعات المركز الجامعي بتامنغست، جانفي 2011، (ص ص 271-286)، ص 272.
2. بيار بونت وميشال ايزار، معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ت. مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت، ط2، 2011.، 143.
3. العربي اسماعيل، الصحراء وشواطئها، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 182.
4. السويدي محمد، نفس المرجع السابق، ص 117-118.
5. خياط سليم، "ازدواجية مكانة الرجل الأسود عبر تقديرات الأصناف السوسيولسانية"، من الكتاب الجماعي: طريق القوافل، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ، الجزائر، 2001، (ص ص 39-48)، ص 39.
6. العربي اسماعيل، نفس المرجع السابق، ص 64.
7. السويدي محمد، نفس المرجع السابق، ص 118، 144، 158.
8. نفس المرجع، ص 118.
9. العربي اسماعيل، نفس المرجع السابق، ص 176.
10. صابر محي الدين، "تعقيب: حول مركب اللون والتمييز العنصري"، من الكتاب الجماعي: مسألة الرق في افريقيا: بحوث ودراسات، تونس، 1989، (ص ص 218-220)، ص 218.
11. مبيمبي أشيل، نقد العقل الزنجي، ت. طواهري ميلود، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر ودار الروافد الثقافية – ناشرون، بيروت، ط1، 2018، ص 70-71.
12. صابر محي الدين، نفس المرجع، ص 218.
13. نفس المرجع، ص 219.

14. منتيسكيو، روح الشرائع، ت. عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013، ص 439.
15. بن حسن منصف، العبيد والجواري في حكايات ألف ليلة وليلة، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 62.
16. مبيمبي أشيل، نفس المرجع، ص 61-65.
17. صابر محي الدين، نفس المرجع، ص 220.
18. صابر محي الدين، نفس المرجع، ص 220.
19. السويدي محمد، بدو الطوارق بين الثبات والتغير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 157-160.
20. خياط سليم، الصلاح السود: تصورات وآليات تشكيل الولاية في الروايات الشفاهية للمجموعات السوداء بالجزائر، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم تخصص الأنثروبولوجيا الدينية، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية 2015-2016، ص 43.
21. نفس المرجع، ص 44.
22. مبيمبي أشيل، نفس المرجع السابق، ص 68.
23. خياط سليم، الصلاح السود، نفس المرجع السابق، ص 46.
24. بوبريك رحال، "العبودية بين القاعدة والاستثناء: الناجم لخصاصي أو العبد الذي أصبح قائدا"، من الكتاب الجماعي: الرق في تاريخ المغرب، تنسيق عبد العزيز عينوز وآخرون، جامعة ابن طفيل، كلية الاداب والعلوم الانسانية، القنيطرة، 2010، (ص ص 183-209)، ص 185.
25. دحمان محمد، " الرق في الصحراء: دراسة سوسيو-أنثروبولوجية حول منطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب"، من الكتاب الجماعي: الرق في تاريخ المغرب، نفس المرجع، (ص ص 173-181)، ص 179.
26. بوبريك رحال، نفس المرجع، ص 185.
27. خياط سليم، الصلاح السود، نفس المرجع، ص 47.
28. الجويلي محمد الهادي، مجتمعات للذاكرة مجتمعات للنسيان، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 51.
29. مبيمبي أشيل، نفس المرجع السابق، ص 57.
30. حركات ابراهيم، "تجارة الرقيق بافريقيا من خلال الموقفين العربي والأوروبي"، من الكتاب الجماعي: مسألة الرق في افريقيا: بحوث ودراسات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1989، (ص ص 71-89)، ص 72.
31. مبيمبي أشيل، نفس المرجع السابق، ص 60.
32. بوبريك رحال، نفس المرجع السابق، ص 186-195، 209.
33. بوبريك رحال، نفس المرجع السابق، ص 191.
34. نفس المرجع، ص 208.
35. نفس المرجع السابق، ص 191.
36. الزواري أمين، الرواسب الافريقية في الثقافة الشعبية التونسية، مراجعة وتقديم خواجة أحمد، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط1، 2019، ص 40.
37. بنمليح عبد الإلاه، ألاسترقاق في الغرب الاسلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية رقم: 66، سلسلة بحوث ودراسات: 20، جامعة محمد الأول، وجدة، ط1، 2003، ص 14.

38. نايجل سي غبسون، فانون: المخيلة بعد – الكولونيالية، ت. أبو هديب خالد عايد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2013، ص 77.
39. ويكيبيديا الموسوعة الحرة، أطلع عليه يوم 25 يناير 2020، الساعة 12.30، موقع:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%BA%D9%86%D8%A7%D9%88%D8%A9
40. بنمليح عبد الإلاه، نفس المرجع السابق، ص 14.
41. بن حسن المنصف، نفس المرجع السابق، ص 68-69.
42. الزواري أمين، نفس المرجع السابق، ص 29.
43. النوري قيس، "الرق في الغرب المسيحي"، من الكتاب الجماعي: "تجارة الرقيق بافريقيا من خلال الموقفين العربي والأوروبي"، من الكتاب الجماعي: مسألة الرق في افريقيا: بحوث ودراسات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1989، (ص ص 171-199)، ص 187.
44. Muddiman, Dave and others, Open to All? The Public Library and Social Exclusion, Volume One: Overview and Conclusions, Library and Information Commission Research Report 84, Resource: The Council for Museums, Archives and Libraries, 2000, p VIII.
45. النوري قيس، نفس المرجع السابق، ص 185.
46. هيلز، ج، ولوغران، ج، ج (2007)، "الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم"، ت. الجوهري محمد، الكويت، عالم المعرفة، اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 344، ص 24.
47. هيلز ، ج، ولوغران، ج، ج، نفس المرجع السابق، ص 8-9.
48. دوران جان. ب، وروبير. ف (2012)، علم الاجتماع المعاصر، ت. طواهري. م، ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية- ناشرون، وهران، بيروت، ط1، ص 170.
49. الزواري أمين، نفس المرجع السابق، ص 34-35.
50. النوري قيس، نفس المرجع السابق، ص 191.
51. الزواري أمين، نفس المرجع، ص39-40.

## 5- قائمة المراجع:


**1**. بن حسن منصف، العبيد والجواري في حكايات ألف ليلة وليلة، سراس للنشر، تونس، 1994.

**2**. بنمليح عبد الإلاه، ألاسترقاق في الغرب الاسلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية رقم: 66، سلسلة بحوث ودراسات: 20، جامعة محمد الأول، وجدة، ط1، 2003.

**3**. بيار بونت وميشال ايزار، معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ت. مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت، ط2، 2011.

**4**. بوبريك رحال، "العبودية بين القاعدة والاستثناء: الناجم لخصاصي أو العبد الذي أصبح قائدا"، من الكتاب الجماعي: الرق في تاريخ المغرب، تنسيق عبد العزيز عينوز وآخرون، جامعة ابن طفيل، كلية الاداب والعلوم الانسانية، القنيطرة، 2010، (ص ص 183-209).

**5**. حركات ابراهيم، "تجارة الرقيق بافريقيا من خلال الموقفين العربي والأوروبي"، من الكتاب الجماعي: مسألة الرق في افريقيا: بحوث ودراسات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1989، (ص ص 71-89).

6. خياط سليم، "ازدواجية مكانة الرجل الأسود عبر تقديرات الأصناف السوسيولسانية"، من الكتاب الجماعي: طريق القوافل، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ، الجزائر، 2001، (ص ص 39-48).

7. خياط سليم، الصلاح السود: تصورات وآليات تشكيل الولاية في الروايات الشفاهية للمجموعات السوداء بالجزائر، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم تخصص الأنثروبولوجيا الدينية، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية 2015-2016.

8. دحمان محمد، " الرق في الصحراء: دراسة سوسيو-أنثروبولوجية حول منطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب"، من الكتاب الجماعي: الرق في تاريخ المغرب، نفس المرجع، (ص ص 173-181).

9. الجويلي محمد الهادي، مجتمعات للذاكرة مجتمعات للنسيان، سراس للنشر، تونس، 1994.

10. دوران جان. ب، وروبير. ف، علم الاجتماع المعاصر، ت. طواهري. م، ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية-ناشرون، وهران، بيروت، ط1. 2012.

11. الزواري أمين، الرواسب الافريقية في الثقافة الشعبية التونسية، مراجعة وتقديم خواجة أحمد، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط1، 2019.

12. السويدي محمد، بدو الطوارق بين الثبات والتغير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

13. شوقي نذير، "واقع الهجرة غير الشرعية في ولاية تمنراست"، مجلة آفاق علمية، العدد 05، مطبوعات المركز الجامعي بتامنغست، جانفي 2011، (ص ص 271-286).

14. صابر محي الدين، "تعقيب: حول مركب اللون والتمييز العنصري"، من الكتاب الجماعي: مسألة الرق في افريقيا: بحوث ودراسات، وقائع ندوة أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1989، (ص ص 218-220).

15. العربي اسماعيل، الصحراء وشواطئها، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

16. منتيسكيو، روح الشرائع، ت. عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.

17. مبيمبي أشيل، نقد العقل الزنجي، ت. طواهري ميلود، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر ودار الروافد الثقافية – ناشرون، بيروت، ط1، 2018.

18. نايجل سي غبسون، فانون: المخيلة بعد – الكولونيالية، ت. أبو هديب خالد عايد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2013.

19. النوري قيس، "الرق في الغرب المسيحي"، من الكتاب الجماعي: "تجارة الرقيق بافريقيا من خلال الموقفين العربي والأوروبي"، من الكتاب الجماعي: مسألة الرق في افريقيا: بحوث ودراسات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1989، (ص ص 171-199).

20. هيلز، ج، ولوغران، ج، ج، "الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم"، ت. الجوهري محمد، الكويت، عالم المعرفة، اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 344، 2007.

21. Muddiman, Dave and others, Open to All? The Public Library and Social Exclusion, Volume One: Overview and Conclusions, Library and Information Commission Research Report 84, Resource: The Council for Museums, Archives and Libraries, 2000, p VIII.

22. ولاية تامنغست، (https://fr.wikipedia.org/wiki/Wilaya_de_Tamanrasset)

23. موسوعة ويكيبيديا، نقلا عن الرابط التالي:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%BA%D9%86%D8%A7%D9%88%D8%A9